

السّمات الفنية لصورة المرأة في الثلاثية

السمة الأولى:

أهم ما يلاحظ على كُتاب الواقعية في الرواية قبل سنة ١٩٥٢- على قلتهم- أنهم يجمعون بين الثقافتين العربية والغربية، بالإضافة إلى الانتماء إلى موقف فكري أيديولوجي محدد يعبرون عنه. من هنا كان امتياز الأدب الواقعي بنظرة شمولية يصدر عنها في رسمه للصورة وبنائه للتجربة. وهذا ما نراه في الثلاثية، حيث نجد الشخصيات تقرن حياتها الاجتماعية بالأحوال العامة للوطن، من ذلك على سبيل المثال أن محمد عفت يقول لصديقه أحمد عبد الجواد: «أنت رجل رجعي ألسنت تصر على حكم بيتك بالحديد والنار، حتى في عصر الديمقراطية والبرلمان»^(١).

والصراع بين حسن سليم وكمال من أجل عايذة، صراع طبقي بالدرجة الأولى، والفائز بزواجهما تأكيد لانتصار الطبقة التي لها السيادة في المجتمع، لذلك يقول حسن سليم لكمال في لهجة التحدي: «فلندعها توازن بين ما قال ابن التاجر وما قال ابن المستشار»^(٢)، ومن ثم كانت

(١) قصر الشوق ص ٢٣٨.

(٢) قصر الشوق ٣٤٩.

خطبة حسن سليم لها «اتفاقية من جانب واحد» كتصريح ٢٨ فبراير (١٩٢٢). وقد ارتبط فشل كمال العاطقى بموت سعد زغلول والمنفلوطى وسيد درويش وضياع السودان، ثم انهيار القيم الدينية وتشويه الصورة المثالية للأب فى نفسه.

وقد أفضت رؤية الكاتب الشاملة لبناء الرواية - كما سبق توضيح ذلك - إلى أن يقدم صورة المرأة - والناس عامة - وقد انعكس عليها تأثير الواقع بجميع أبعاده وسلبياته، ومن ثم لم تعد الشخصية خيرة أو شريرة على الإطلاق، وإنما هى إنسان مركب النزعات معقد التكوين، أو هى بمعنى أوضح الصورة التى نلقى بها البشر فى الواقع المعيش. كذلك فإن الكاتب يؤلف بين معظم النماذج الإنسانية على اختلاف مستوياتها الاجتماعية.

السمة الثانية: أن بناء الرواية لا يخضع للقدرية أو العفوية، وإنما هو بناء متماسك خطط فيه لكل موقف بعناية، ومن ثم كانت الصورة إيجابية متحركة، تدور فى وسط اجتماعى واضح تبدو فيه خصوصية الزمان والمكان. نجد هذه الإيجابية فى كل صور المرأة فى الرواية، فعائدة تصدق كلام ابن المستشار على كلام ابن التاجر، وعائشة لا يمنعها الحجاب والإرهاب الأبوى من أن تتطلع إلى العالم الخارجى من خلال الطاقة الضيقة المتاحة لها، فتحب من المشربية ضابط الشرطة حسن إبراهيم. كما لا تسلمها - بعد الزواج - طيبة الطبع وهدوء المزاج النفسى إلى سلبية مفرطة، وإنما إلى أن تكون على علاقة طيبة مع جميع

«الأحزاب العائلية». وخديجة ترى أن تحقيق الوجود لا يتم إلا بأن تستقبل بمطبخها، وإن ثارت الحماسة وهدد الأب. وزنوبة العوادة تبدو إيجابيتها في أنها مرقت من بيت خالتها ومعلمتها زبيدة لتعيش مع أحمد عبد الجواد في العوامة، لكنها لا تهناً حتى تظفر بياسين زوجها وتتمسك به رغم شذونه.

والمرأة أثناء حركتها في الرواية واعية بطبيعة الجو الاجتماعي الذي تتحرك فيه، ومن ثم تلتزم في السلوك والفكر الحد الذي تبدو به في الحياة.. وليست هناك شخصية مهما تكن ثانوية تتجاوز دورها في الواقع. الشخصية الوحيدة التي نحس أن الكاتب قد رسمها نمطا نظريا، أكثر من كونها شخصية بشرية هي سوسن حماد التي أراد من خلالها أن يصور الملامح الجديدة للمرأة في إطار يستشرف رؤيته، ومن هنا كان اتكاؤه على فكرها وسلوكها المادي دون محالة إبراز عواطفها الخاصة.

السمة الثالثة: أن الكاتب في تقديمه للصورة يستعين بكافة الوسائل الفنية، التي تمكن الروائي من أن يجعل الشخصية حية في رواية، حيث إنه لا يقدم الشخصية - مهما تكن ثانوية - دفعة واحدة.

وإذا أخذنا صورة أمينة مثلا لتصوير الشخصية، رأينا في البداية يقدمها بالتقرير السردي المفصل الذي يهتم بالوصف المادي والنفسي والحركة الدرامية، حيث يقدم في البداية وصفا متأنيا شاملا يرسم

لها صورة واضحة، سواء فيما يتصل بالصفات المادية أم الأحاسيس النفسية^(١).

يضاف إلى هذا السرد الحوار المركز الموحى، بحيث يبرز جوانب أخرى للشخصية، أو يؤكد بعض ما عرف عنها من قبل. مثال ذلك الحوار الذى دار بين الأم وفهمى حين طلب منها أن تكلم والده ليخاطب له «مريم»^(٢).

فهذا الحوار يضيف أبعادا جديدة تعرفنا بشخصية أمينة الخاضعة أمام زوجها المستبد، وهو - الحوار - الذى يعبر بصدق عن الموقف والشخصية. ونجد الكاتب يحاول أن يبتث خلاله نجوى النفس أو ما يعرف بالمنولوج الداخلى، وإن كان على قدر يسير.

ثم يأتى بعد ذلك تطور الأحداث فى الرواية ليضيف أبعادا أخرى تنمى الشخصية وتزيد من معرفتنا بها. وأخيرا يأتى (حديث الآخرين) ليكون عنصرا آخر من العناصر التى تساعدنا على تمثيل الشخصية، من ذلك قول ياسين عنها: «ما أطيب هذه المرأة. إن الله لا يغفر لمن يسئ إليها»^(٣).

ولا تموت الشخصية أو تغيب عن الرواية، إلا بعد أن يكون المؤلف قد استنفذ كل ما يريد أن يقوله من خلالها، لذلك كان من الطبيعى أن تموت أمينة بعد وفاة الزوج، لأنها لا ترى لها وجودا بغيره،

(١) بين القصرين ص ٥.

(٢) بين القصرين ص ١٤١.

(٣) قصر الشوق ص ٤٤٣.

«ولا تعرف الحياة إلا وهو محورها الذى تدور حوله»، بل إنها لم تكن تبصر الحياة ذاتها إلا بعينيه».

هكذا يبذل الكاتب كل جهده ليستعين بعناصر فنية مختلفة تبرز جوانب الشخصية، التى يقدمها ممتزجة بعبير الحياة وملامح الواقع.

السمة الرابعة: أن نهاية الرواية لا تجنى على الشخصية الروائية عند نجيب محفوظ. إن كتاب الرواية الرومانسية مغرمون بالنهايات الفارقة: سعيدة أو مأسوية، بحيث تبدو هذه النهايات مفتعلة لإثارة الشفقة أو التعاطف مع شخصيات الرواية بدرجة ترضى ذوق جمهور محدود الثقافة والوعى.

أما عند نجيب محفوظ فالنهاية (نهاية الرواية والشخصيات) نابعة أساساً من التطور المنطقي للحدث الروائى الذى سبق أن خطط بعناية فائقة، فعائدة تفضى حتمية الصدق مع الواقع ألا تقبل كمال زوجا برغم إخلاصه فى حبها، وعائشة الجميلة تسلب أعز ما تملك، وتبدو فى صورة المصاب الحزين لتكون رمزا لما أصاب كل جميل فى الواقع، وخديجة تستمر فى الثلاثية لتمثل الصورة العامة لامرأة الطبقة الوسطى بفكرها وسلوكها. الظروف المضطربة جعلت جليلة العالة غنية ثرية، وزبيدة متسولة تسير فى الشارع هائمة كالمجذوبة فى نهاية الرواية.

نفس القضية تصدق على نهاية الرواية التى تبدو من ناحية نتيجة

طبيعية لتطور أحداثها، ومن ناحية أخرى تعكس صدق تصوير الواقع، حيث انتهت الرواية بدخول أحمد وعبد المنعم السجن تعبيرا عن عدم صلاحية التطرف في إصلاح الأحوال المضطربة للمجتمع. لكن السجن برغم برودته وظلامه يشع خيوط النور والأمل من خلال قضبان نافذته. ونفس المعنى نجده في إنهاء الرواية بموت أمينة وميلاد طفلة لعبد المنعم وهو في السجن، لقد انتهى الماضى القديم، لكن ينبغي ألا نشغل بالحزن عليه، بقدر ما ينبغي أن نتفاءل باستقبال الأمل الجديد. وهذا الرمز أعطى خاتمة الرواية لمسة تفاؤل مشرقة.

السمة الخامسة: أن (اللغة) التى يقدم بها الكاتب تجربته من غير تكلف فى صياغة الأحداث أو الحوار، تتركب فى وضوح عذب، لتؤكد تمكن الكاتب من لغته الموحية الشاعرة. وعلى رغم هذا لا نجده يحيل الأدب إلى صنعة لغوية، وتقديم لوحات وصفية أو آراء نظرية عامة، لا علاقة لها بالحدث الرئيسى للرواية. فهو يبني العبارة بقدر ما تخدم الفكرة.

من هنا يلتحم الشكل بالمضمون والحدث بالشخصية، لنجد - فى الرواية الواقعية عامة والثلاثية خاصة - تجربة روائية حية عميقة الأثر، تبرز صورة المرأة (والرجل) من خلالها صادقة مع الواقع الذى تصوره.

إن عناية الرواية (الواقعية) بالموقف الفكرى لم يمنعها من الاهتمام بالجوانب الفنية التى تجعل من الشخصية نامية إيجابية، ومن الرواية

قطعة نابضة من الحياة زاخرة بالحركة، وعلى هذا يبدو أن «الفن هو المعبر عن عالم الإنسان، وإلى هذا فمن الأدباء من أسهم بفنه في معركة الآراء العالمية، فينقلب الفن على يده عدة من عدد الكفاح في ميدان الجهاد العالمي. لا يمكن أن يكون الفن نشاطا غير جدى»^(١).

هذا الفهم لدور الفن عند آدبائنا الواقعيين، يؤكد أن وظيفة السرور لا تقف عند الحكى المسلى والتعبير العاطفى، وإنما يتعدى ذلك إلى المساهمة فى خلق القيم وخلق الذات وخلق الواقع من جديد. انطلاقا من هذا الفهم المستنير، كان امتياز الرواية الواقعية على الرواية الرومانسية التى عاصرتها، ويقف نجيب محفوظ كاتبا من أكبر الكتاب إنتاجا فى مرحلة بحثنا وأكثرهم تقدمية، لذلك نرى أن الدور الذى قام به يجعله بحق (أكبر معلم) فى تاريخ الرواية العربية المعاصرة، التى تناصر الإنسان: رجلا كان أو امرأة، وتحرّض على الثورة التقدمية فى الفكر والسلوك، وتستشرف عالم الحرية الرّحب من اجل غدٍ أفضل للحياة والبشر.

هذا ما تؤكده سيموطيقا الرواية الواقعية.. فى تراث أديبنا الكبير نجيب محفوظ.. عميد الرواية العربية - رحمه الله...!!^(٢)

(١) السكرية ص ١٧٩.

(٢) لم نعن بذكر قائمة المصادر والمراجع واكتفينا بما ورد عنها فى الهوامش.